مباحث البلاغة العربية في كتاب "الإكسير في علم التفسير" للطوفي البغدادي

-دراسة وصفية تحليلية-

الدكتور: عزالدين عماري *
جامعة محمد بوضياف- المسيلة- (الجزائر)
azzeddine.ammari@univ-msila.dz

الإرسال: 2020/12/23 القبول:2022/04/25 النشر: 2022/05/30

الملخص:

اكتنف علم البلاغة بعد عبد القاهر الجرجاني وحتى نهاية القرن الثامن الهجري الكثير من التعقيد والغموض، وهذا ما حرك همم الكثير من العلماء في تاريخ الأمة الإسلامية للتأليف في هذا المجال بغية إيضاح هذا العلم وتسهيل مسائله، فكانت جهودهم راقية وجليلة، من هؤلاء سليمان الطوفي البغدادي والذي عاش في القرن السابع الهجري، حيث أسهم في تقديم جهد معتبر يتمثل في تقديم مباحث البلاغة على أنها ركن ركين لا غنى عنه لمن يتصدى لتفسير القرآن الكريم، ومنه يأتي هذا البحث لبيان هذه المباحث من خلال كتابه " الإكسير في علم التفسير" ووصفها وتحليلها والوقوف على أثرها في مجال البحث البلاغي، وذلك من خلال الإجابة عن الأسئلة التالية:

- من هو سليمان الطوفي البغدادي؟ وما الغاية من تأليفه لكتابه " الإكسير"؟
- كيف عرض لمباحث البلاغة في كتابه؟

الكلمات المفاتيح: البلاغة، الإكسير، التفسير، الطوفي.

* **المؤلف المرسل:**

The Rhetorical Investigation in the book "The Elixir in the Science of Tafsir" by Suleiman Al-Tufi Al-Baghdadi

- Analytical Descriptive Study -

Abstract The science of rhetoric after Abd al-Qaher al-Jurjani and until the end of the eighth century AH was surrounded by a lot of complexity and ambiguity , and this is what motivated many scholars in the history of the Islamic nation to author in this field in order to clarify this science and facilitate its issues, so their efforts were sublime and solemn. He contributed a significant effort in presenting the investigation of rhetoric as an indispensable cornerstone for those who confront the interpretation of the Noble Qur'an, and from it this research comes to clarify these topics through his book "The Elixir in the Science of Tafsir", describing them, analyzing them and standing on their impact in the field of rhetorical research. This is done by answering the following questions:

-Who is Suleiman al-Tufi al-Baghdadi? What is the purpose of writing his book "The Elixir"?

- How was he presented to the rhetoric studies in his book?

Key words: Rhetorical investigations, elixir, toffee, interpretation.

مقدمة:

اهتم علماؤنا القدماء باللغة العربية عناية فائقة، واهتمّوا بدراستها اهتماماً بالغا، وكان من أسباب هذا الاهتمام أنها لغة القرآن الكريم، ونتيجةً لتلك العناية نشأت علوم لغويّة كثيرة، من أجلّها علم البلاغة، هذا العلم الذي حث علماؤنا على تعلمه، وبخاصة أنه ارتبط بإعجاز القرآن الكريم، ذلك أن الله إنما تحدى العرب ببلاغة القرآن الكريم، وهم أهل البلاغة والفصاحة، ولهذا قال أبو هلال العسكري: «اعلم علّمك الله... أن أحق العلوم بالتعلم وأولاها بالتحفظ- بعد المعرفة بالله جل ثناؤه- علم البلاغة، ومعرفة الفصاحة، الذي به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى، الناطق بالحق، الهادي إلى سبيل الرشد، المدلول به على صدق الرسالة

وصحة النبوة، التي رفعت أعلام الحق، وأقامت منار الدين، وأزالت شُبَه الكفر ببراهينها، وهتكت حجب الشك بيقينها»[1].

وفي هذا، خلف علماؤنا في هذا العلم مؤلّفات لا يستغني عنها طالب علم، انطلاقا من الجاحظ الذي فتح باب التأليف والتصنيف البلاغي، إلى ابن المعتز وقدامة بن جعفر وعبد القاهر الجرجاني وعبد العزيز الجرجاني والزمخشري، وابن الأثير وصولا إلى السّكاكي الذي جمع أشتات البلاغة في القسم الثالث من كتابه "مفتاح العلوم" انتهاء عند القزويني الذي ألف كتابه " الإيضاح في علوم البلاغة"، والذي شرح فيه ما ورد في كتاب " المفتاح" من مسائل بلاغية وقسّمه حسب علوم البلاغة "المعاني والبيان والبديع"، لتتوالى التلخيصات و الشروحات و التوضيحات لما ورد في " الإيضاح"، وشروحات لهذه الشروحات، دخلت البلاغة العربية على إثرها مرحلة من الغموض والتعقيد فأصابها الجمود، ذلك أن هذه التلخيصات قد كانت مفهومة في عصرها، « وذلك لأن الذي لخص قد قام بعمل يتكئ فيه على غيره، كما أن الذي شرح، قد اعتمد على مشروح غيره، والذي كتب التقرير قد أسس على كلام غيره، وجاءت الصعوبة في دراسة هذا اللون من البلاغة في أن الدارس نظر إلى الشرح دون المتن، وإلى التلخيص دون الملخَّص»[2].

من المؤلفات البلاغية في هذه الفترة ما اشتهر ونال حظه من الدراسة والتنويه، ومنها غير ذلك، حيث إن بعضها لا زال يحتاج إلى اهتمام أكبر، ومنها كتاب " الإكسير في علم التفسير" لسيمان الطوفي البغدادي، وهذا ما دفع الباحث إلى أن يسهم بدوره في التعريف بهذا الكتاب وبمؤلفه، ثم أن يبرز جهوده البلاغية من خلال هذا الكتاب.

01- التعريف بصاحب الكتاب:

صاحب الكتاب هو نجم الدين سليمان البغدادي الطُّوفي ، أصولي لغوي، ولد بقرية طوفى من أعمال صرصر بالعراق سنة 657هـ، نشأ وترعرع بها، وحفظ بها مختصر الخرقي في الفقه، واللُّمَع في النحو لابن جِنّي، وكان يتردد إلى صرصر، فتفقَّه على يد الشيخ المعروف بابن البوقي، ثم رحل إلى بغداد فحفظ المحرر في الفقه، وقرأ العربية والتصريف على محمد بن الحسين الموصلي، وسمع الحديث وقرأ المنطق، وجالس فضلاء بغداد في أنواع الفنون، ثم انتقل إلى دمشق وسمع الحديث من القاضي سليمان بن حمزة، ثم سافر إلى مصر والتقى علماءها، ونزل الأرض المقدسة حتى أدركته المنية في بلد الخليل عليه السلام في شهر رجب سنة 716هـ.

له مصنفات كثيرة تربو على الأربعين كتابا منها: غفلة المجتاز في علم الحقيقة والمجاز، جدل القرآن، بغية الواصل في معرفة الفواصل، تفسير سورة (ق) وسورة (النبأ)، شرح مقامات الحريري، الإكسير في علم التفسير[3].

02- كتاب " الإكسير في علم التفسير": وصفه، والغاية من تأليفه:

و"الإكسير في علم التفسير" كتاب قيّم في مجاله، ألفه صاحبه ليكون مرجعا يعوّل عليه في علم التفسير، وأداة يرسخ بها مسائل البلاغة لمن يتصدى له، ذلك أن الذي يتصدى لتفسير القرآن الكريم، أو الذي يبحث في مواطن إعجازه لا بدّ له وأن يمر على جسر البلاغة.

اشتمل الكتاب على مقدمة وثلاثة أقسام؛ حيث بيّن في المقدمة معنى التفسير والتأويل والفرق بينهما، وعرض في القسم الأول للكلام الذي لا يحتاج إلى تفسير والذي يحتاج إلى تفسير، والقسم الثاني بين فيه ما ينبغي للمفسر النظر فيه من العلوم التي اشتمل عليها القرآن، والقسم الثالث أفرده لعلوم البلاغة (المعاني والبيان والبديع)، وهو قسم يحتل معظم صفحات الكتاب، وقد حفل فيه الكاتب بالشواهد الشعرية والنصوص النثرية والفنية من تراثنا الجليل، عمل على تحليل معانيها وجلاء أسرارها، وبيان مراميها.

أفرد الطوفي لعلم البلاغة القسم الثالث من كتابه، تحدث فيه عن مباحث بلاغية كثيرة أدرجها كلها في قسمين اثنين هما المعاني والبيان، وقد جعله في مقدمة وجملتين، حيث إن الجملة عنده أعلى من الباب، أما المقدمة فجعلها في ثلاثة مباحث، المبحث الأول في الكشف عن حقيقة علم البيان، والثاني في بيان فضيلته وشرفه، والثالث في ورود القرآن على أساليب مختلفة، وهو في هذا المبحث يبين أن في القرآن الكريم ما ورد على أنحاء مختلفة، ويدلل على ذلك بشواهد كثيرة منه، ويذكر كيف أن علماء البيان بحثوا في علة ذلك وبينوا من خلاله بلاغة القرآن الكريم[4].

وأما الجملة الأولى، فقد قسمها إلى بابين، بابها الأول في أحكام علم البيان، وقد قسمه إلى ثلاثة فصول، الأول في مقدماته التي ينبغي الابتداء بها، والثاني في آداب التأليف وبيان الطريق إليه، والثالث في الحقيقة والمجاز. وبابها الثاني قسمه إلى ثلاثة فصول أيضا، الأول في الألفاظ المفردة والمركبة والصفات التي تستحق بها رتبة الحسن والجودة في الألفاظ المفردة، والثاني في المعاني وأنها أشرف من الألفاظ، والثالث في الكلام المنثور والمنظوم وأيهما أفضل.

وأما الجملة الثانية، فقسمها إلى بابين أيضا، الأول في الفصاحة والبلاغة، والثاني في أنواع علم البيان، فهي معنوية ولفظية، حيث ذكر للمعنوية تسعة وعشرين نوعا، على أن لبعض أنواعها أصنافا، ولبعضها الآخر أضربا، وذكر للّفظية سبعة أنواع.

إن الناظر في هذا التقسيم يلحظ من الوهلة الأولى ذلك الاضطراب الواضح في تقسيم مباحث البلاغة وتبويبها، حيث إنه:

- لم يفرد لعلم المعاني بابا خاصا به يضمنه مباحثه، حتى وإن أشار إلى وجوده في عنوان القسم الثالث " في علم المعاني والبيان"، وبالتالي فإن مباحثه جاءت مبثوثة ضمن مباحث البيان، على أنه ينبغي أن نشير في هذا المقام إلى أن الطوفي يفرد كلمة " علم" فهو لم يقل " في علمي " وكأنه — ربما- يجعل المعاني والبيان علما واحدا، وهذا ما يفسر ما سبق ذكره من أنه لا يفصل بين مباحثهما، كما أن هناك أدلة أخرى مبثوثة في ثنايا الكتاب تثبت ذلك، منها قوله: « فمعنى قولنا علم المعاني والبيان: العلم المراد بالألفاظ، وإظهار المراد بها»[5]، كما أنه يذكر في موضع آخر ما هو من مباحث البيان على أنه من المعاني، ومن ذلك مبحث " الكناية"، فهو يقول: « إذا تقرر هذا فموضوع هذا العلم، هو المعاني؛ لأنها هي التي تبحث فيه عن عوارضها اللاحقة بها، من تقديم وتأخير، وإضمار وتقدير، وإطناب وإيجاز، وكناية وألغاز، ...»[6]

.

- لم يشر إلى ما يسمى " البديع"، ومباحثه وردت مبثوثة أيضا ضمن مباحث علم البيان، وذلك حين يتحدث عن أنواع علم البيان اللفظية[7].

- مبحثا البلاغة والفصاحة وردا في باب من أبواب علم البيان، وكأنهما عنده فرع منه، وهذا على غير عادة البلاغيين القدماء والمحدثين على السواء، أين يجعلون علم البيان بابا من أبواب البلاغة إذ إنه فرع منها وليس أصلا لها، وليس ببعيد عنه القزويني في كتابه الإيضاح في علوم البلاغة؛ أين يجعل أول باب من أبواب كتابه " في معنى الفصاحة والبلاغة"[8]، و«ذِكرُ معنى الفصاحة والبلاغة قبل الشروع في مسائل المعاني والبيان والبديع ضروري، لتوقف معرفة معانيها على معرفة معنى البلاغة والفصاحة »[9]، غير أن ما يبرر هذا المسلك هو أن من البلاغيين القدماء -قبل الطوفي- من كان يطلق مصطلح " علم البيان " على مباحث البلاغة جميعا*، ويبدو أنه قد أخذ به.

إن ما سبق ذكره من ملاحظات حول تصنيف الطوفي لمباحث البلاغة وترتيبه لها، لهو دليل يضاف أيضا إلى التأكيد على ما ذهب إليه الدارسون من أن البلاغة العربية في بداية نشأتها كانت مشوشة الملامح، وغير متضحة المعالم لزمن طويل، ولم ترتسم فنونها إلا في

القرون المتأخرة، فقد كان دارسوها القدماء يخلطون الدرس البلاغي بالدراسات النقدية والأدبية وبحوث إعجاز القرآن الكريم مما جعلها تتأثر في مراحلها الأولى بمختلف العلوم كالفقه والتفسير والأدب والنقد وعلم الكلام[10]، وإذا ما أخذنا بالحسبان -ما سبق ذكره- من أن معالم فنون البلاغة لم تتضح إلا على يد أبي يعقوب السكاكي (ت 626هـ)، والذي يعود له الفضل في تهذيب مسائلها وترتيب أبوابها ، حيث صنف كل فن من فنون البلاغة في الباب الذي يناسبه، وذلك في القسم الثالث من كتابه " مفتاح العلوم"، ومن أن الخطيب القزويني(ت 739هـ) اعتمد في كتابه " الإيضاح في علوم البلاغة" هذا التقسيم، فالسؤال الذي يطرح نفسه: كيف نفسر ما ورد في كتاب " الإكسير في علم التفسير" من تشويش في ترتيب أبواب البلاغة ؟ كيف ذلك و الطوفي ليس ببعيد عن السّكاكي، كما أنه عاصر القزويني، حيث إنه توفي سنة 716هـ! والإجابة عن ذلك تحتمل وجهين: إما أنه لم يطلع على الكتابين، أو أنه اطلع عليهما ولم يأخذ بما ورد فيهما، و لربما كان الوجه الأخير هو الأقرب، فهو يقول حين يتحدث عن علمي المعاني والبيان: « وقد صنف الناس فيهما كتبا كثيرة، إلا أن من أحسن ما رأيت فيها، كتابا صنفه الشيخ الإمام العلامة حجة العرب، ولسان الأدب: ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد بن الأثير الجزري رحمه الله، ترجمه بالجامع الكبير في صناعة المنظوم والمنثور... فعمدت في هذا القسم إلى الإتيان بجميع مقاصد كتابه... جامعا فيه بين البيان والإيجاز»[11]، وربما هذا ما يفسر هذا النهج الذي اعتمده الطوفي في تبويب كتابه، فهو يشبه إلى حد كبير ما اعتمده ابن الأثير في كتابه السالف الذكر[12].

03- المباحث البلاغية الواردة في الكتاب:

لا يمكننا ذكر كل المباحث البلاغية الواردة في الكتاب وبيانها فذلك مما لا تسعه صفحات هذا البحث، وإنما سنعمد إلى الأخذ ببعضها معتمدين في ترتيبها على ما هو معمول به في كتب البلاغة، بأن تكون البداية بمفهوم الفصاحة ثم مفهوم البلاغة؛ ذلك أن الأولى شرط في تحقق الثانية، لأن الكلام إذا لم يكن فصيحا لم تقبل عليه إفهام السامعين فيفوتها كثير مما أودعه المتكلم في كلامه من الدقائق[13]، ثم في علوم البلاغة: المعاني والبيان والبديع، ونختم البحث بمبحث من مباحث البديع، وهو " المطابقة" حتى يكون نموذجا نبين من خلاله قيمة الكتاب في استشهاده بآيات القرآن الكريم، و بالأحاديث القدسية والأحاديث النبوية وكلام العرب شعره ونثره.

03-01- مفهوم الفصاحة والبلاغة:

مادة (ف ص ح) تدل في اللغة على الظهور والبيان، فأفصح فلان عما في نفسه إذا أظهره، ودليل ذلك قول العرب: أفصح الصبح إذا ظهر وأضاء، ...[14].

والفصاحة يوصف بها المفرد والكلام والمتكلم، بينما البلاغة يوصف بها الكلام والمتكلم فقط، وفصاحة المفرد خلوه من ثلاثة عيوب: الغرابة، وتنافر الحروف، ومخالفة القياس، وفصاحة الكلام خلوه من ثلاثة عيوب أيضا، هي: التعقيد وتنافر الكلمات، ومخالفة قواعد النحو ويسمى ضعف التأليف، والشواهد من كلام العرب شعرا ونثرا في ذلك مشهورة[15].

وأما البلاغة فقد أُلبست بعدد لا بأس به من التعريفات اللغوية والاصطلاحية، فهي في اللغة تعني الوصول والانتهاء، يقال بلغ الشيء يبلغ بلوغا وبلاغا، وصل وانتهى، و يقال رجل بليغ، ... يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه[16].

وأما في الاصطلاح، فقد أورد لها البلاغيون تعريفات كثيرة، أوردها الجاحظ (ت 255ه) في كتابه "البيان والتبيين"، منها أنها «تخيّر اللفظ في حسن الإفهام»[17]، و هي «اسم المعاني تجري في أمور كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابا ومنها ما يكون ابتداء، ومنها ما يكون شعرا ومنها ما يكون سجعا، ومنها ما يكون خطابا ومنها ما يكون رسائل، فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة، والإيجاز هو البلاغة»[18].

وأشهر تعريف لها هو تعريف القزويني، فهي عنده مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته[19].

والمتأمل في كتب البلاغة يجد أن البلاغيين قد فصلوا كثيرا في الحديث عن الفصاحة والبلاغة معتمدين في ذلك على الشواهد من كلام العرب شعرا و نثرا، واستغرق منهم ذلك مساحة لا بأس بها في كتبهم، وهذا ما لا نجده في كتاب " الإكسير"، أين ذكر الغاية منهما وعرف بهما ثم ذكر موضوعهما، وكل ذلك دونما تفصيل، حيث إن هذين المبحثين لم يستغرقا إلا ما يقارب الصفحتين، مع أنه يشير في بداية المبحث إلى أنهما لثبوت إعجاز القرآن الكريم بهما فهما يحتاجان إلى كلام مفصل وتحقيق فيصل[20].

في الباب الأول من الجملة الثانية يعرّف سليمان الطوفي الفصاحة بأنها: «خلوص اللفظ من التعقيد الموجب لقرب فهمه، ولذاذة استماعه؛ وذلك باشتماله على صفاته المتقدمة»[21]، ويعرف البلاغة أنها: « كون الكلام الفصيح موصلا للمتكلم إلى أقصى مراده»[22]، وأما موضوعهما؛ فالفصاحة تختص بالألفاظ الدالة، والبلاغة بالكلام الفصيح، ومعناه، وهي أخص من الفصاحة، لأن متعلقاتها اللفظ والمعنى ومتعلق الفصاحة اللفظ فقط[23]، وأما ما ذكره

البلاغيون قبله من عيوب للمفرد والكلام والمتكلم مما يبعد عن الفصاحة والبلاغة فنجد أنه قد ذكره في باب قبله (الباب الثاني من الجملة الأولى وعنوانه: في الألفاظ المفردة والمركبة والصفات التي تستحق بها رتبة الحسن والجودة في الألفاظ المفردة[24].

03-02-علما المعاني والبيان:

كان من الأولى في البحث الحديث عن "علم المعاني" أولا ليعقبه بعد ذلك "علم البيان"، وبما أن الطوفي لم يفرد لعلم المعاني بابا خاصا به يضمنه مباحثه، وأنها جاءت مبثوثة ضمن مباحث البيان، وأن هناك اضطرابا في ترتيبها - وقد سبقت الإشارة إلى ذلك- فلا مناص في وصفهما من الجمع بينهما.

علم المعاني هو «علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال»[25]، وأما الطوفي، فيغلب في تعريفه المعنى اللغوي، إذ يعرفه: «وأما المعاني، فهي: جمع معنى، وهو مدلول اللفظ، والمراد بحسب قصد المتكلم، والأصل فيه كسر النون، وتشديد الياء؛ لأنه مشتق من عنيت الشيء أعنيه»[26]، وأما مباحثه التي وردت مبثوثة في ثنايا الكتاب، فهي:

- في المعاني وأنها أشرف من الألفاظ، الالتفات، العدول، في عكس الظاهر، الحمل على المعنى، التقديم والتأخير، الاعتراض، الإيجاز، الإطناب، توكيد الضمير المتصل بالمنفصل، في استعمال العام نفيا، والخاص إثباتا، في تفسير المبهم، في التعقيب المصدري، وضع الظاهر وضع الضمير تعظيما أو تحقيرا، التقديم والتأخير، في التخلص والاقتضاب، في المبادئ والافتتاحات، في خذلان المخاطب، في قوة اللفظ لقوة المعنى، في الاشتقاق، في الحروف العاطفة والجارة، في التكرير، في الاقتصاد والإفراط والتفريط، في الخطاب بالجملتين الفعلية و الاسمية المؤكدة، في ورود الكلام بلام التأكيد.

البيان في اللغة الظهور والكشف والوضوح، فبان الشيء: اتضح. واستبان الشيء: ظهر...[27]

وهو في الاصطلاح: «علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه»[28].

وأما البيان عند الطوفي، فهو: «إما مصدر من بان يبين، إذا ظهر، ... أو اسم مصدر من ذلك، أو مصدر محذوف الزوائد من أبان الشيء يبينه إذا أظهره »[29]، وأما مباحثه التي ذكرها، فهي: الحقيقة والمجاز، الاستعارة، الكناية والتعريض، التشبيه.

والملاحظ مما سبق ذكره من مباحث المعاني والبيان، ما يلي:

- إن الطوفي لم يستوف جميع مباحث المعاني المعروفة في كتب البلاغة، فهو مثلا لم يتعرض لمباحث كثيرة تتعلق بالأساليب الإنشائية كالاستفهام والتعجب والنداء وغيرها.

- مباحث البيان لم ترد في الكتاب مرتبة بما يجب أن تكون عليه، بحيث يكون التشبيه أولا والاستعارة ثانيا ثم الكناية والتعريض وأخير الحقيقة والمجاز.

03-03- علم البديع:

مادة (ب د ع) في المعاجم العربية تدور في معناها العام حول الجدة والحداثة؛ ففي لسان العرب: « بدع الشيء يبدعه بدعا: أنشأه وبدأه، وبدع الركيَّة استنبطها وأحدثها. وركيٌّ بديع حديثة الحفر. والبديع والبدع: الشيء الذي يكون أولا»[30].

أما عن الدلالة الاصطلاحية للبديع عند البلاغيين فله أكثر من تعريف، وإن اختلفت لفظا فإنها متفقة معنى، ويمكن أن نقتصر منها في ذلك على تعريف واحد، فعلم البديع: " هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام، بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة "[31].

وهو قسمان: قسم يرجع التحسين فيه إلى اللفظ، و يسمى " المحسنات اللفظية "، وقسم يرجع التحسين فيه إلى المعنى و يسمى " المحسنات المعنوية ".

والطوفي لم يذكر مطلقا مصطلح البديع، بينما أدرج كثيرا من مباحثه في باب البيان، حيث قسّمه قسمين؛ أحدهما معنوي والأخر لفظي، ورتب مباحث البديع ضمن القسمين، ففي المعنوي، ذكر: المطابقة، التفسير، صحة التقسيم، التضمين، الاستدراج، الإرصاد، التوشيح، الأخذ و السرقة، المسخ، السلخ، المعاظلة. وفي اللفظي، ذكر: السجع والازدواج، التجنيس، الترصيع، الموازنة، رد العجز على الصدر، الإعنات، تكرير الحرف الواحد.

03-04- المطابقة:

يجعلها الطوفي ضمن البيان المعنوي، ويدرجها في " تناسب المعاني "، وهو النوع العشرون من أنواعه، وهو على ثلاثة أضرب، أولها المطابقة[**]، وفي تعريفها لا يذكر معناها اللغوي، و يعرفها قائلا: «وهي عند الكثرين مقابلة الشيء بضده كالسواد والبياض، والليل والنهار»[32]، ويورد لها بعد ذلك تعريفات لثلاثة بلاغيين هم قدامة بن جعفر، وابن الأثير، والبحراني[33].

ثم يذكر" المقابلة " ويجعلها من المطابقة[***]، ويعرفها على أنها « الجمع بين شيئين متوافقين وضديهما، ثم إن شرطتهما بشرط وجب أن تشرط ضديهما بعيد ذلك الشرط نحو:

﴿فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى، وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل، 05--10]»[34].

ويذكر بعد ذلك قول ابن الأثير حين عرفها بأنها: «مقابلة الشيء إما لضده أو لغيره أو لمثله»[35]، ويرى بأن هذه القسمة مضطربة، «لأنها متداخلة، فإن غير الشيء يدخل فيه ضده ومثله. والصواب أن يقال: الشيء إما أن يقابل غيره، فذلك الغير: إما ضد أو لا، وغير الضد، إما مثل أولا، فهذه قسمة صحيحة دائرة بين النفي والإثبات»[36].

ثم نجده يمثل للأول من هذه القسمة من القرآن الكريم بقوله ﷻ: ﴿لِّكَيْلَا تَاسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[الحديد، 22]، حيث قابل الحزن بالفرح والغائب بالآتي. ومن الحديث النبوي الشريف بقوله عليه السلام: ((خيرُ المالِ عينٌ ساهرةٌ لعينٍ نائمَةٍ))، و يمثل من الشعر بأربعة أبيات لشعراء مختلفين، منها ببيت لزهير بن أبي سلمى، إذ يقول:[من البسيط]

ليثٌ بِعَثَّرَ يصطَادُ الرِّجَالَ، إذا مَا كذَّبَ اللّيثُ عن أقْرانِه صَدقَا[37].

حيث قابل الكذب بالصدق[38].

ويعرض بعدها للنوع الثاني منها، والذي هو مقابلة الشيء بمثله، و يذكر له ضربان:

الأول: التقابل في اللفظ والمعنى نحو قوله ﷻ: ﴿ نَسُواْ اللهَ فَنَسِيَهُمُ﴾ [التوبة، 67]، وقوله:

﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ [النمل، 52]، وقوله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُم فَاعْتَدُوا عَلَيْه﴾ [البقرة، 193]، وقوله أيضا:﴿ وَجَزَاؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى، 37].

الثاني: مقابلة الجملة بمثلها في المضي والاستقبال: فالماضي نحو قوله ﷻ: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى ءَاذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا. ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ [الكهف، 11-12]، والمستقبل، نحو قوله أيضا:﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُومِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ﴾ [الأنعام، 111].

يشير الطوفي بعد ذلك إلى أن ما ذكره يندرج ضمن ما يسمى بالتقابل اللفظي، وأن هناك نوعا آخر يقابله هو التقابل المعنوي، ويمثل له من القرآن الكريم، ومن كلام العرب شعره ونثره، ففي صيغته من الماضي، قوله ﷻ: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظ﴾ [ق، 04]، أي: قد علمنا ذلك وحفظناه، وقوله أيضا: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق، 05]، أي: بل كذبوا فاختلط أمرهم عليهم والتبس، وفي المستقبل،

فكقوله ﷻ : ﴿**قُلِ اِنَ اَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّيَ أَمَدًا**﴾ [الجن، 25]، ويبين هذا التقابل قائلا: «التقدير هنا موجه لأنه يجوز أن يقدر، أقريب بمعنى: أيجعل لكم ما توعدون أم يجعل له أمدا ، فيكون من باب تقابل الجمل، ويجوز أن يقدر : "يجعل " بمعنى بعيد ، أي : إن أدري أقريب ما توعدون أم بعيد، كما صرح به في موضع آخر»[39]، وقد يقابل الماضي لفظا بالمستقبل نحو قوله ﷻ: ﴿ **اِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اِهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي** ﴾ [سبأ، 50]، والمستقبل بالماضي نحو : "إن تكرمني أكرمت "[40].

ثم يأتي بعد ذلك على ذكر المثال الثالث، والذي هو مقابلة الشيء بالشيء، وليس ضده ولا مثله، وهو عنده ضربان : الأول: مقابلة الشيء بما يقاربه ويناسبه كقول قريط بن أنيف: [من البسيط]

يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلمِ مَغْفِرَةً وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ السُّوءِ إِحْسَانا[41].

حيث قابل الظلم بالمغفرة، وليست ضده ولا مثله، ولكنها قريبة من العدل والإنصاف الذي هو ضد الظلم، و الثاني: مقابلته بما يبعد عنه، كقول الكميت: [من البسيط]

أَمْ هَلْ ظَغَائِنُ بالعَلْيَاءِ رَافِعَـةٌ وَإِنْ تَكَامَلَ فِيهَا الدَلُّ والشّنبُ[42].

والمقابلة هنا بين الدّل و الشنب، والأول: الشكل، والثاني: من أوصاف الإنسان ولا مناسبة بينهما، وإن كانت فبعيدة[43] .

في نهاية البحث نخلص إلى بعض من النتائج، نوردها كالآتي:

- إن السبب الرئيس في تأليف كتاب " الإكسير" هو اتصال مؤلفه بالقرآن الكريم، حيث إن الغرض من تأليفه هو أن يضع قانونا يكشف به ما اعترى علم التفسير من إشكال بحيث يعول عليه ويصير هو المرجع في هذا الفن.

- مصطلحات البلاغة والفصاحة والبيان والبديع ظلت متقاربة الدلالة عند القدماء، وكما أن ابن المعتز سمى كتابه" البديع" وهو يقصد به جميع مباحث البلاغة فإن سليمان الطوفي البغدادي في كتابه " الإكسير"، كان عنده مصطلح" البيان" شامل لجميع بحوث البلاغة.

- لم يلتزم الطوفي في ترتيب مباحث كتابه وتبويبها النهج المشهور في ذلك والذي اعتمده من عاصره من البلاغيين كالقزويني، بل اعتمد نهجا آخر، مما ولد –بالنظر إلى ذلك- تشويشا وخلطا في ترتيب هذه المباحث.

- من خلال نموذج " المطابقة" الذي تم تقديمه فالكتاب في استشهاده المطرد بآيات القرآن الكريم، و بالأحاديث النبوية وكلام العرب شعره ونثره يعتبر –بحق- علَما وزادا دسما لمن أراد أن يتزود بالبلاغة ويتكثر من فنونها وبدائعها.

وأخيرا ومما تم عرضه، يمكن الجزم بأن سليمان الطوفي بكتابه " الإكسير في علم التفسير" قد ترك بصماته واضحة وجلية في حقل الدراسات البلاغية وقدم جهدا لا يمكن إنكاره والتقليل من شأنه، وهذا البحث يمكن أن يكون فاتحة لأعمال أخرى تخص ما قدمه الرجل من جهود في ميدان البحث البلاغي.

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم، برواية ورش لقراءة نافع.

المصادر:

- سليمان الطوفي، الإكسير في علم التفسير، تح: عبد القادر حسين، مكتبة الآداب ومطبعتها، القاهرة، ط1، 1977م.

المراجع:

- أبو تمام، ديوان الحماسة، شرح: المرزوقي، علق عليه: غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:01، 1424ه / 2003م.

- الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، دار الكتب العلمية، بيروت، د ط، لبنان، د ت.

-ـــــــــــــــ، الإيضاح في علوم البلاغة، شرح: محمد عبد المنعم خفاجي، المكتبة الأزهرية للتراث، ط:03، القاهرة، 1993.

- زهير بن أبي سلمى، الديوان ، شرحه وقدم له :علي فاعور، دار الكتب العلمية، ط:03، بيروت/لبنان، 1424ه/ 2003م.

- ضياء الدين بن الأثير، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، تح: مصطفى جواد، سعيد جميل، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، (د.ط)، العراق، 1956م.

- ـــــــــــــــ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، مطعبة مصطفى البابي الحلبي، د ط، مصر، د ت.

- عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية (المعاني والبيان والبديع)، دار النهضة العربية، د ط، بيروت، د ت.

- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تح، عبد السلام محمد هارون، دار الجيل ، ط: 02، بيروت، 1998م .

- الكميت بن زيد الأسدي، الديوان ، تح: محمد نبيل طريفي، دار صادر، ط:01، بيروت، 2000.

- محمد بركات حمدي، البلاغة العربية في ضوء منهج متكامل، دار البشير، ط:01، عمان، الأردن، 1992.

- محمد الطاهر بن عاشور، موجز البلاغة، المطبعة التونسية، ط:01، تونس، د ت.

- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر ، د ط، بيروت، د ت.

- أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، تح: محمد علي البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية، د ط، بيروت، 1986.

الهوامش:

7-الهوامش والإحالات:

[1] - أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، تح: محمد علي البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية، د ط، بيروت، 1986، ص:01.

2 - ينظر: محمد بركات حمدي، البلاغة العربية في ضوء منهج متكامل، دار البشير، عمان، ط:01، الأردن، 1992، ص:22.

3 - ينظر: سليمان الطوفي، الإكسير في علم التفسير، تح: عبد القادر حسين، مكتبة الآداب ومطبعتها، ط1، القاهرة، 1977م، ص: و، ط، ي.

4 - ينظر: المصدر نفسه، ص: 39، 43.

5 -المصدر نفسه، ص: 31.

6 - المصدر نفسه، ص: 32.

7 - ينظر: المصدر نفسه، ص: 310.

8 - ينظر: الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، شرح: محمد عبد المنعم خفاجي، المكتبة الأزهرية للتراث ، ط:03، القاهرة، 1993، ج:01، ص: 17

9 - المرجع نفسه، هامش للمحقق، ج:01، ص: 17

* - من هؤلاء: الجاحظ في كتابه " البيان والتبيين"، ذلك أن مصطلح البيان عنده أعم من البلاغة، ومنهم أيضا: ابن وهب في كتابه: البرهان في وجوه البيان.

10 - عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية (المعاني والبيان والبديع)، دار النهضة العربية، د ط، د ت، ص:201.

11 - سليمان الطوفي، الإكسير في علم التفسير، ص: 29.

12 - للوقوف على كل ذلك، ينظر: ضياء الدين بن الأثير، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، تح: مصطفى جواد، سعيد جميل، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، (د.ط)، العراق، 1956م.

13 - ينظر: محمد الطاهر بن عاشور، موجز البلاغة، المطبعة التونسية، ط:01، د ت، تونس، ص: 07.

14 - ينظر: ابن منظور، لسان العرب، دار صادر ، د ط، بيروت، د ت، مادة (فصح).

15 للتوسعة في ذلك، ينظر: عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية، ص: 17 وما بعدها.

16 - ابن منظور، لسان العرب، مادة (بلغ).

17- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تح، عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، ط: 02، 1998م ، بيروت، ج1، ص114.

18- المرجع نفسه، ص 115.

19- ينظر: الخطيب القزوينى، الإيضاح في علوم البلاغة، ج01، ص:20.

20- ينظر: سليمان الطوفي، الإكسير في علم التفسير، ص: 107.

21 - المصدر نفسه، ص: 107

22 - المصدر نفسه، نفس الصفحة.

23 - المصدر نفسه، ص: 108.

24 - ينظر: المصدر نفسه، ص: 68.

25 - الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، دار الكتب العلمية، لبنان، د ط، بيروت، د ت، ص: 15.

26 - سليمان الطوفي، الإكسير في علم التفسير، ص: 30.

27 - ابن منظور، لسان العرب، مادة (بين)

28 الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص:215.

29 - سليمان الطوفي، الإكسير في علم التفسير، ص: 30، 31.

30 - ابن منظور، لسان العرب، مادة (بدع).

31- الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص:348.

** يطلق عليه ابن المعتز أيضا اسم " المطابقة"، ويسميها قدامة " التكافؤ"، وعبد القاهر الجرجاني اسم " التطبيق" ، ويسميها القزويني " الطباق".

32 - سليمان الطوفي، الإكسير في علم التفسير، ص: 259.

33 - ينظر : المصدر نفسه، نفس الصفحة.

34 - المصدر نفسه ، ص:259، 260.

35 - ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، مطعبة مصطفى البابي الحلبي، د ط ، مصر، د ت، ج:02، ص:280.

36 - سليمان الطوفي، الإكسير في علم التفسير، ص:260.

37- زهير بن أبي سلمى، الديوان ، شرحه وقدم له :علي فاعور، دار الكتب العلمية ، ط:03، بيروت/لبنان، 1424هـ/ 2003م، ص: 77.

38 - ينظر: سليمان الطوفي، الإكسير في علم التفسير ، ص: 260، 261.

39 - المصدر نفسه، ص: 262.

40 - ينظر: المصدر نفسه، ص: 262.

41- أبو تمام، ديوان الحماسة، شرح: المرزوقي، علق عليه: غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، ط:01، بيروت، 1424هـ / 2003م، ص: 21.

42 - الكميت بن زيد الأسدي، الديوان ، تح: محمد نبيل طريفي، دار صادر، ط:01، 2000 ،بيروت، ص: 36. والبيت في الديوان: وقد رأينا بها حورا منعمة بيضا تكامل فيها الدل والشنب.

وقد أشار المحقق إلى أن البيت ورد في مصادر أخرى بالشكل الذي سبق ذكره في المتن .

43 - ينظر: سليمان الطوفي، الإكسير في علم التفسير، ص: 263.